باب المراسلة والمناظرة

الشعر المصري الحديث [1]

عنيت مجلة آج نوفو « Age Nouveau » الباريسية في عدد أغسطس سنة ١٩٤٩ بنشر مقال نقدي لطائفة من شعراء مصر المبرزين في العصر الحديث وهم : شوقي وحافظ ومطران وخليل مطران وطه وابراهيم ناجي وحسن كامل الصيرفي ، وكاتب هذه السطور كان أقرب الى المؤاخذة منه الى التقدير . فرأيت إنصافاً لأدب وعدالةً قبل إنصاف أدبي أن أدلي بهذا التعليق على ذلك المقال الذي اهتمت مجلة « المقتطف » بنشر تعريبه في عدد شهر نوفمبر سنة ١٩٤٩ ... يقول الكاتب الناقد إن ليس للشعر المصري المعاصر كبير أهمية ويبدي عليه أنه لا يزال بعيداً كل البعد عن السيريالزم ويستشهد بقول الأستاذ الدكتور طه حسين (معالي الدكتور طه حسين باشا) إن صورة الشعر العربي الذي يقدمه شعراء مصر الآن لا تبعث على التشجيع ولا تنمّ عن ثروة من الشعر .

فأما عن مؤاخذة الدكتور طه فمنصبّة في الحقيقة على الشعر المائع المتقعّي ، ومقالاته في المؤاخذة يشفع له فيها اخلاصه وغيرته على نبضة وطنه . وأما النقد التحليلي الشامل العميق فمبسوط في كتاب الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) [2] بسطاً وافياً دقيقاً .

والسيريالزم أو السريالية ليست بالبدعة الفنية الحديثة وليست تاجاً للشعر الراقي ولم يخلُ منها الشعر العربي — لا المصري لحسب — المعبّر من الاضطرابات أو المصور لها ، حتى شعر المتنبي في حروب سيف الدولة لم يخلُ منها . ولكاتب هذه السطور نماذج متعددة منها دون شهرٍ منثورة في تضاعيف شعره ، ويليها مقدمة قصيدته « اسكندرية الدامية » التي نظمت أيام الحرب العالمية الثانية ، وقد صنعت القنابل ما صنعت بعروس البحر المتوسط ، ومن العجيب حقاً أن ينتقص قدر الشعر المصري الحديث لأنه لا يعتنق السريالية اعتناقاً أعمى . إن الشعر المصري التقدمي الحديث يعتمد على الخلافة الفنية وحرية التعبير الوجداني ، مع الترفّع عن المحاكاة ، ومع التطلع الى السموّ الانساني . إن هذا دعا ومهّد نادي أستاذنا خليل مطران في مستهلّ هذا القرن بل قبل اشراقه . ولئن كان مطران لبنانيّ الأصل فهو مصري الاقامة والتفاعل والتأثير أولاً وأخيراً . وكان لمدرسته الأثر

---

(١) المقتطف : منذ أكثر من عام نشرنا ترجمة مقال ظهر في مجلة « آج نوفو » الفرنسية عن الشعر المصري الحديث . فلما اطلع عليه الاستاذ الدكتور احمد زكي أبو شادي ، أرسل إلينا الفصل التالي تعليقاً على ذلك المقال ورداً لكرامة الشعر من قبل .

(٢) المقتطف . مؤلفه الأديب الكبير الاستاذ عبد اللطيف السحرتي وقد نشره المقتطف سنة ١٩٤٨

النقدي لشعر الشعر بمصر وخارجها. وقد ذكر الناقد حافظ إبراهيم الله « يعيد مقلباً الى أبعد حدود التشبيه الشعراء القضاعي قبل الاسلام وبعده ». وهذا غير صحيح، فان اسلوب حافظ الكلاسيكي في بعده الى أي توسع في التعبير عن حالاته النفسية، وفي التعبير عن الحياة وفي استخدام التلميح البياني. ونختار مما لا يقف متأثراً أمام مصيبته المشهورة في شكوى الزمان التي يقول في مطلعها :

مصيبتي أني أرى كيدها أنتل الدما ... وهدتني وما أعقبت إلا التشددا
سلام على الدنيا سلام مودع ... رأى في ظلام القبر أنساً ومضجعا
أصرت بعد الأول فهام بأختها ... وان مدت الأخرى فويلاه منهما
فيبني رفاقي أمرت بكاءه واطلقي ... مراثي حياتي قبل أن يتحطما
فما حسنتي من زماني قضائي ... وذكرى رأيت الموت للحر أحسما

وفي الناحية على كاتب هذه السطور وعلى الدكتور ابراهيم ناجي وعلى حسن كامل الصيرفي فاتحة اتفاجهم وانه من أني هجرت الشعر في سنة ١٩٣٦ واقفاً جهدي على العلم وحده. والحقيقة أن لكل من ناجي والصيرفي الكفاية من الزكاة عن أدبهما وفنهما - وقد صدر أخيراً ديوان (الشروق) للصيرفي، وصدر أخيراً ديوان (ليالي القاهرة) لناجي. وقيمة الآثار الفنية على أي حال ليست بكثرتها ولا بقلتها. وقد فات ناقدي ان ديواني (عودة الراعي) صدر في سنة ١٩٤٢ وان ديواني (من السماء) قد ظهر أخيراً، وأن شعراً آخر لي تضمه مجلدان لا أكثر من مجلة (أدبي) التي اوقفها الاضطهاد الفكري في مصر كما يتفاه أخواتها من قبل. والناقد الفاضل معذور في أي حال على اهتمامه ولي عودة لتناول جملة نقاده وملاحظاته بالتعليق. ولم يبلغ الشعر العربي في أي عصر مبلغاً أرقى مما وصل اليه الشعر المصري الحديث في جملته - وليست هذه من الأوليين ولا من عبدة الأبطال وعلى هذا يسعني أن أضيف من الشعر المصري الحديث ما تعرفه وان أحبي منه جميعاً وان أقدر الآثار الكاملة لطليعة شعرائنا دون الاقتصار على واحد، وان كان إعجابي الأول وبهذه الروح كنت أشعر وأكتب فما صنعت لي العروس صفحاً لهم وملأن الشعراء وتوثيقاً لأواصر الأخوة الأدبية بينهم.

والشعر المصري الحديث يعبر كذلك عن النهضة الشعرية في بقية العالم العربي حيث انقضى أو كاد الوقوع بالمحاكاة للفحول الشعراء المتقدمين وحيث الابتداع محله ثم حلت الطلاقة الفنية، وصار التعاون الانساني ضخماً عاماً في مناصر الشعر الحديث.

وليس من شأنهم أني لا أحترم الشعر الشعبي في أي أقطار الوادي ضمن (الأمم البيانات)

او شعر ... اذا كان ذا طابع فني ، أو اني من يفهم مبدأ « الشعر لأجل الشعر » أو أي مذهب آخر من هذه النظريات الفنية حتى في شعر الشهوة المتدني كقصائد بودلير ، ولكن معناه في ... من الشعر الغنائي المستكمل لأدواته الفنية كمطران وناصيف واقبال بين المحدثين هو الشعر ... الجيد النفس والمثل العليا من الشاعر المنطوي على نفسه .

... عبدة من مصريين وشرقي ومحرم وحافظ وغيرهم مقطوعاتهم « الاخوانية » كأنما هي ألوان من أزهار الحديقة وأريج معطرها عن دواوينهم ، مع انها قد تكون من صميم الشعر الوجداني الرائع . وأذكر على سبيل المثال ما صدر به مطران الجزء الأول من ديوانه في طبعته الأخيرة من المساجلة الودية — التي جرت بين شوقي ووالدي خلال سنة ١٩٠٤ (أي منذ ستة وثلاثين عاماً) حينما اشتد الضيق بالناشرين في مصر وعم القلق — بين سياسي واقتصادي ، وقد اشتمل هذا الجزء من ديوان شوقي مجلة (رمسيس) المصرية في الجزء الرابع من المجلد الرابع عشر وأردفت السيدة العروسي مع الرد عليها في المجموعة الشعرية التي اختارتها من نظم النوعين . فهذا النوع من الشعر له قيمته الفنية والتاريخية ولا يجوز بأي حال امتهانه وإسقاطه ، كما أنه من وجهة أخرى لا يجوز التعالي في إكباره كما كان يصنع السلف . ومهما يكن من شيء فليس الشعر أسلاً في ذاته ، وهيهات أن ينهض الموضوع الرفيع بالنظم الغث الميت فيحيله الى شعر سليم نابض بالحياة .

ولا مشاحة في أن الشعر المصري الحديث — بل الشعر العربي اجمالاً — قد بلغ منزلة رفيعة من النضج الفني تستحق الاعتزاز بها . ولم تنصف مجلة « آبي توفر » الباريسية بتصدرها الدراسة على سبعة من الشعراء المصريين ينهم كاتب هذه السطور ، فهناك شعراء آخرون كبروز يزدان الشعر المصري الحديث بآثارهم اللامعة . ومع اعترافه الناقدي هو نفسه الآنفة الذكر بأن لكل من الشاعرين علي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل ثقافة رمزية في شعرهما طابع عليها ظلة التعمق . ولعله يريد بذلك أن ثقافة كل منهما محدودة وأن ضيق ثقافتها غل صدرها عن الانبساط الفكري والتناول الفلسفي ، ولكن ذلك لم ينقص محمود حسن اسماعيل والتنويه بطاقته الشعرية الجيدة . على الرغم من محدودية ثقافته ، كما لم يقلل اعتراف علي محمود طه بالتنويه بقدرته الوصفية وان تكن اصالته محدودة . ولعله كان متأثراً في نقده بكتاب (في الميزان) للأديب المصري الجهير الدكتور محمد مندور الذي أعلن حرباً شعواء على التقليد الأعمى والتصنع والتحجر ، وكانت له وقفة نبيلة في الدفاع عن الشعر الصادق الأصيل حياله . وعن بعض شعراء المهجر الأميركي .

وكنت أود في هذا السياق الموجز عن الشعر المصري الحديث أن أتحاشى الاشارة

الى ما خصني به الاستاذ الفاضل في المجلة المتقدمة الذكر قولا أو مطالب بالرد على ملاحظاته . فقد ذكرني في ثلاثة مواضع ذكراً كريماً ولكن المهم فيه لتاريخ الأدبي والنقد الشعر المصري الحديث هذه الملاحظات الآتية . قال : —

(١) — كان في وسع الشاعر أحمد زكي أبو شادي أن يقتني آثار حكماء العرب في القرون الوسطى — أرسطاليس الذين كانوا يتسمون في وقته واحد بين الفلسفة والعلم ، غير أنه يعتد عند المرحلة بكفاءته من تربية النحل وتصديره شعراء الطبيعة .

(٢) — أراد أبو شادي أن يبعد الأوزان بادخال قواعد من أوزان الشعر الانكليزي وجاءت النتيجة بين بين — وأخذ أبو شادي يطالع الناس من خلال دواوينه الوفيرة الانتاج بقصائد قيمته عن الطبيعة — ولكن أبا شادي داد فرجير الشعر في عام ١٩٣٦ ووقف جهده على العلم .

وجوابي عن هذا هو أني خدمت الشعر المرسل والشعر الحر بنماذج متعددة ، منها حاولت الجمع بين شطرين فبيتين أو أكثر في القصيدة الواحدة كما في قصيدتي الموجهة الى محمد فريد وجدي بك صاحب (دائرة معارف القرن العشرين) المنشورة في ديواني الموسوم (أنين ورنين) ، ولكن هذه الجهود لاقت مقاومة عنيفة من المحافظين . وكما أستطيع الذكر في الشطر الأول من هذا المقال قد فات الناقد الفاضل الاطلاع على آثاري الشعرية بعد سنة ١٩٣٦ وربما فاته بعضها قبل ذلك ، لأن الملاحظات التي أبداها لا تنطبق عليّ ، وقد كان أدبي الكاسب — لا الخاسر — بثقافتي المتنوعة . وما لم يكن الشاعر متصنعاً فليس في وسعه أن يمثل العصر ، فالشعر بضاعة من البضائع تزاول ثم تترك حسب الظروف .

ولا أعتقد أن هناك ما يشرفني أو يشرفه أي شاعر معاصر ، باقتفاء آثار حكماء العرب في القرون الوسطى ، بدل أن أكون مستقلاً بنظراتي وتفكيري وابتكاري الفني . ويظهر أن سفرة المستشرقين الأوروبيين والأميركيين يرون غير رأي الناقد الفاضل في فلسفتي العالية الفنية المتجلية في كثير من قصائدي ، مثيلات « أقصى الشعور » و « القناعة » و « الطارد » و « ماكون » و « تحطيم الثروة » والأخيرة كانت لبوة هصرت وقد طبعت في ديواني (الكأس الثاني) الصادر في بداية سنة ١٩٣٥ .

هذه إلمامة « عامة » أكتفي بها إضافة للمقدمة المتقدمة التي أنتسب إليها . وليس جهدي المتواضع إلا قطرة من المجموع الشامل والبحر الزاخر الذي أسهم فيه العديدون من أساتذتي وزملائي في مدى نصف قرن ، متجاورين مع أندادهم النوابغ في الأقطار العربية الأخرى وفي طليعتها لبنان وسوريا والعراق .

أحمد زكي أبو شادي

نيويورك